

تجاريبي في الحياة

للمستاذ الكبير اسعد بك لطفي حسن

- ١ -



(الاستاذ اسعد بك لطفي حسن)

الاستاذ الكبير اسعد بك لطفي حسن
من خيرة رجالنا علما وعملًا، وأنبلهم خلقًا ونفسًا،
يمتاز بصراحته في القول وحرثه في الرأي ،
ولا أدل على ما نقول ، من هذه المذكرات
الخاصة بحياته التي يقرر فيها ما يقرر في صدق
وخلص ، ونحن نشارك الاستاذ اسعد بك
حسن في أن الدكتور طه حسين قد فتح بكتابه
«الايام» سبيل الادب الواقعي ، وأنه كشف فيه
عن سير لم يشا كتاب الشرق أن يذيعوا حياتهم
على سياقه ونسقه .

وفي يقيننا أن الاستاذ لطفي بك قد تأثر بالايام
وصاحبه أجزل تأثير . فهو يطلع علينا في هذه
المذكرات بالوان حياته وما فيها من تجارب ،
وسيري القراء في هذه المذكرات - التي سنوالى
نشرها - من روايات الانباء ما يمتعهم دون ريب...
المحرر

نارت الحرب العالمية فأثارت معها : هواجس الأمم ، ورواقد الشعوب ، ونوم الدول ، وأهاجت
النفوس ، وأشعلت الأفتدة ، وأيقظت القلوب ، وأنعشت الأرواح ، وكان للشرق أكبر
نصيب في اليقظة بعد رقدته ، والحركة بعد سكونه ، والصحو بعد نومه ، والعمل بعد جموده
والجد بعد جموده . وما وضعت الحرب أوزارها حتى سكن القائمون بها ، وهيج المشعلون
لنارها ، وعلى الضد قام الشرق ، وبدأت نهضته ، وعمل واستمرت حركته ، وتقدمت خطواته ،
وكثرت آماله ، وانتشرت في كل ناحية من نواحي الرجاء مجهوداته وأعماله ، ومن ثم وهو
يقاال اليأس ويعتق الرجاء ، ومنذ عهد قريب بدأ يحني ثمرات غرسه ، ويتمتع بلذذ ما تطيب

إليه النفوس وتطمئن له الخواطر، وكان إحياء العلوم وإنهاض الآداب من أقوى قواه وأعظم ما كان يعمل له ويرجوه ويتمناه، فقد أطل على الأدب العربي والتفكير الشرقي قبس جديد من الثقافة التجريبية الناجعة، والبحوث العلمية النافعة، ذات الأثر الفعال في تربية أذواقنا العامة وأحاسيسنا الفردية، وفي توجيه الحياة الدائمة الأثر إلى الناحية الناجعة المرجوة والمنتهجة حقاً. ولا مرء في الاقرار بأن ظهور ذلك القبس كان بأشراق تلك المذكرات القيمة النفيسة التي طالع بها القراء صديقنا الأديب النابه الدكتور طه حسين عميد كلية الآداب بالجامعة المصرية، عن تاريخ حياته، وما جاء بها من حرية القول وصراحة الحقائق وزهارة النشر، ولعل القراء يذكرون أيضاً - ويذكرون بالخير الكثير والفناء العاطر - مقالات «الأيام» وهي تتم على أنا لسنا في حاجة إلى تعريفنا بالدكتور العميد، أو تمداحنا لمواهبه وكفائاته وقوة نبوغه.

ولا نبالغ في اعتبارنا هذا أسلوب القيم والنوع الثمين القدر من الكتابة الهندسية، بأنه القبس المنير الوضاء، والاتجاه الصحيح النافع للثقافة التجريبية الناجعة، والمورد العذب لأرواء النفوس بالخلق الكريم، وتغذيتها بالقضائل الواصلة إلى قرارة القلوب والافتدة، ذلك لأنه بمثابة خطة عملية للحياة الحقيقية، ورسم واضح لصورة ما في تلك الحياة من مهامه وفيافي، وأنجاد ووهاب، وسهول وحزن، وأضاليل وأباطيل، وترهات وخزعبلات يتحذر من الوقوع فيها، ويعمل على تعادي الشر منها، ويكون المجهود النافع بمثابة منارة كشافه ترسل الضياء المنير، والهدى الساطع لارتياح طرق الخير والهداية والارشاد، حتى لا ترتطم الرذائل بالقضائل، ولا تبتلع الأمواه قوى العاملين الصابرين، وتقنى مجرودي السالكين المجدين، وما أكثر ما في هذه الحياة الدنيا من صعاب نكراء، وعقبات كأداء، ومصائب دهاء، ودواهي برحاء.

ونتمسك بهذا النوع القيم، ونعتبره قبساً واضح الانارة، لأنه وصف دقيق للحياة الحقيقية بدررها وغررها، وجواهرها وأصدافها، وتباهي به، كما اعتبر الفرنسيون اعترافات (روسو) وقدر الانجليز اعترافات آكل الأفيون (ديكنسن)، وكما فخر الايطاليون بمذكرات (بايني) عن المسيح عليه السلام، وكما يعترف العرب للكثير من علمائهم وأدبائهم ببحوثهم المنشورة هنا وهناك في الأغاني والجاحظ وغيره من فذلسكات قيمة وأقاصيص متينة شيقة.

ونعتبره قبساً خليقاً بالاحتذاء والافتداء، يرجي منه النفع كله، والاهتداء به إلى تقويم المعوج من الأخلاق، وإيماء المستقيم من العادات، والهداية إلى الطريق السوى... وهذا نستطيع «قراء المعرفة» الكرام أن ندلى بدورنا بدلاً لنا لنتاح من هذا القليب الذي لا ينضب، والمعين الذي لا يزال يدر بأخلاف النفع ومختلف القوائد، وتقدم إليهم آمين مطمئنين لغفوفهم الكريم وفضلهم العميم، لعائنا نصل بواسع حلمهم وغزير علمهم إلى ما نعمل له ونصبوا إليه من مقاومة

ما اجتاحت الهمة ونزل بالفضائل ، وتمكن من بث ما يدعو الى العزة، وإباء النفس، والشمم والكرم، والحلم، والجود، والبر، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومن ثم يسطع نور الثقافة وتضى شمسها وتشرق أشعتها قلوب العالمين وأفئدة المجدين ، وتعود شمس العرفان الى مشرقها مهبط الوحي ومبعث الحكمة ونور اليقين .

في هذه الحياة الدنيا التي بدؤها بلاء ، ووسطها عناء ، وآخرها فناء، وأولها حركة، ونهايتها سكون ، في جوها المملوء بالمفاجآت ، المتعم بالمخزئات ، المضطرب بالآلام النفسية ، المشبع بالغيوم الخلقية ، المملوء بالزفرات والحسرات ، فريق من الناس يلهو ويلعب ، ويمرح ويضطرب، وآخر يتألم ويتوجع، ويشكو ويتضرع ، وغيره يرضى بما هو عليه ، ويسر بما هو سائر فيه ويقنع، أضداد ومناقضات ، تلك سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

في هذه الحياة — وقد قضيت الخمسين من عمري ، برمت بي في خلالها ما مر من أفراح وأتراح، وهموم ومتاعب، وتسهيلات ومصاعب، ونعم ومحن، وهناء وبلاء، ونعيم وشقاء ، وكان لي منها عظة واعتبار، وتجارب واختبار، وآمال وآلام، ورضى وتوجع، وشكر وتضرع ، ومواقف ومواهب — رأيت بعد بحث عميق، وتمحيص وتدقيق، أن كل انسان مسئول عن الدعوة للواجب، مكلف بالتذكير للخير وفعل المعروف ، مطالب بالعمل للإصلاح وخير المجموع ، لا فرق بين أمير وحقير ، وكبير وصغير، وواعظ اختص بالوعظ ، وكاتب انقطع للقلم والقرطاس، بل الكل مسئول عن تأدية واجبه نحو المجموع الانساني قدر طاقته، وفي دائرة علمه ومداركه وتجربته. وما أجل أن يطبق العلم على العمل ... لهذا رأيت في حدود تجربتي وخبرتي — التي قضيت فيها ذلك العمر المنصرم — أن لا أضيع مجهود تلك المرحلة، ولا أضن بسرد ما صدفتني واعترائني، لعل فيه نفعاً لغيري، وتفيداً مما أصابني، فلا أضن بسرد ليس في إذاعته ضرر، ولا أبخل بأمر فيه عبر ومزدجر. فالصراحة مبدأي، والاخلاص للحق رائدي، والوفاء للواجب مقصدي ، وعظة الناس واعتبارهم وعبرتهم غايتي . وإني لا أتهيب سرد وقائع خفي أمرها عن الناس، وفي ذكرها دفع للشر وعمل للخير ... كل هذا ليكون الواقع عند قول القائل « سل مجرباً » .

نشأني:

سبحان الله خالق كل شيء ، سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الارض، ومن أنفسهم، ومما لا يعلمون ، فقد أوجدني من أبوين — رحمة الله عليهما — وقد فارقا هذا العالم الغائي وأنا ابن ثلاث سنوات، وخلقاني بيتاً أتجرع كأس اليتيم المرير، وأشرب حنظلها، وأتجرع مره وصابه، مع أن أي — طيب الله ثراه — كان كما شهد له أهله ومعارفه — تقياً ورعاً، ممن اتبع قول الله « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم، فليتقوا الله وليقولوا قولا سديداً » تخلف

لنا ما كان كافياً لحفظ كيان: أولاده الستة، وابنتيه، وزوجته غير احمى، وجدتي لأني، ولكن شاء
القدر ان يتولى أمر هذه العائلة وصيان: أولهما عمى شقيق أني، وثانتهما جدي اخوتي لأهمهم، وكان
للمجلس الحسيني سلطان الرقابة عليهما .
المجلس الحسيني :

كان المجلس الحسيني رقيباً على عمى الوصى، وكان يحاسبه في كل سنة، ولا يزال ماثلاً لناظري
وكان ينتقل عمى من محل إقامته بمدينة طنطا الى مقر رئيس المجلس بمدينة دمياط في كل عام مرة
وقد كنت أذكر جيداً اهتمام عمى بهذه الرحلة، حيث أراه شديد الاهتمام بالانقطاع الى
إعداد كشوف الحساب، والاستعداد بشتى الهدايا، فكان يحمل باليمين أوراقاً وبالسار ارزاقاً،
حتى اذا ما وصلت الارزاق، اعتمدت الاوراق، وكان الحساب يسيراً وعاد عمى فرحاً مسروراً .
سبحان ربى ! فقد انطبعت في مخيلتي حياة الصغر، كأنما رسمت كل المراتب التي مرت أمام
ناظري في خلايا ذلك العقل الصغير الذى احتوى كل حادث مر عليه، أو كأنما كانت ثانياً
ذلك المخ طيات كتاب حفظ كل صغيرة وكبيرة في ادوار الحياة، حتى اذا رجعت اليه راجعت
تلك المحفوظات فوجدتها كأنها بنت اليوم لا تخوير فيها ولا تغيير .

لهذا، أذكر أن عمى اختلف مرة مع كاتب تجارته — وكان ثم اتفاق بينهما من قبل —
فاتخذ الكاتب الخصومة سبيلاً للطعن، فأذاع بين الناس شيئاً ضد مفرقات الحساب، وما هى
إلا عشية — استحضرت فيها بعض المطايب من الهدايا، وما أسرع من القطار الذى حملها وكتاب
البريد — حتى وصل الرد بالاطمئنان وعدم الاهتمام ... هذه واقعة تدفعنى للكلام عن المجالس
الحسبية في عهدها القديم وحالها الحديث .

من راجع أعمال هذه المجالس في الماضى والحاضر، لا يشك مطلقاً بأنها من الأنظمة الواجب
التدقيق فى مهمتها، ووضع خطط قيمة تدفع عنها ما أصابها من الشكوى والصجر، لأن المجالس
الحسبية فى عهدها القديم نظام عتيق لم يكن للرقابة على الاوصياء ومحاسبتهم على تصرفاتهم، بل
كان لا تطلق أيديهم فى مال القصر، والسعيد من تهيأت له أسباب الوصاية أو القوامة حيث
لا رقيب ولا محاسب، وقد كان هم المجالس مراجعة الايرادات والمصروفات فقط، والتصديق على
المبررات، ولم نسمع أن مجلساً حاسب وصياً على تعليم قاصر أو الاهتمام بحالته الأدبية، وكان
الأوصياء يجتهدون فى إجابة طلبات القاصر وإرضاء المشرف، وقد ينتهى الأمر ببلوغ القاصر
سن الرشد والاستيلاء على حقوقه بحالتها التى وصلت، دون أن يعرف كيف يتصرف فيها أو
يدير شؤونها، ولذلك تسوء العاقبة أو يتدفع فى تيار الضلال ويلتف حوله قراء السوء، فلا يلبث
الإقلايل حتى يصبح معذماً، واذا رأيته فى ضلاله قيل: إنه وارت .

وقد تحسنت حال المجالس فى عهدها الجديد فى أمر واحد فقط، وهو: الدقة والشدة فى
الحاسبة المادية، والاشراف الدائم على المادية، ولكن التصرفات التفصيلية من النواحي الادبية
والخلقية، والعناية بتعليم القاصر وتثقيف عقله، فهذا أمر لا شأن لها به ولم يكن من عملها .

والنتيجة تكاد تكون أشد من نتيجة الأُمس، إذ يبلغ القاصر رشدَه — وهو ثرى لم يكن يعلم بما يملك ولا يدرك غاية ما عنده — فيندفع في الحياة على غير هدى .
ومن المدهش أن للقصر أموالاً ضخمة مودعة باسمهم في خزانات الحكومة دون فائدة أو استغلال، ودون البحث في استثمارها في عمل نافع، وكان من السهل التدبر في ذلك، وقد آن الأوان للاهتمام بهذه النقطة الدقيقة الهامة .
حياة الطفولة:

أنتقل بك أيها القارىء الكريم لأذكر إصابتي بمرض الحصبة، وأنا في الرابعة من عمري، وقد عهد إلى عجوز تمرضني، فجعلتني تحت رحمة جهلها وتصرفاتها السيئة، فكانت تتلاعب بحياتي وتجعلني ضحية تجاربها واختباراتها، إذ حرمت على غسل عيني طوال مدة المرض، ولولا فضل من الله ورحمة لفقدت بصرى — ولكني نشأت قصيره وضعيفه — ثم جاوزت كل حد في التمتع، فحرمتني رؤية الشمس، ووضعني في كبة (ناموسية) حمراء، وألبستني جلباباً احمراً، ومنعت عني شرب الماء، وأباحت شرب منقوع السكر الأحمر... كل هذا ليظهر الطفح، وأغلقت نوافذ الغرفة التي كنت أقيم بها، وسدت منافذها حتى لا يدخلها الهواء فأصاب بالسعال الحاد، وإن أنسى لا أنسى يوم خلعت عني كل ملابسي، وغسلت جسدى بماء الملح وعصير البصل، ثم تنازلات وسمحت لي بما شأدت من الطعام... كل هذا وأنا فريستها، ولا من يتقذني من مخالبها، لا في يتيم لم أسمع صوت الأُم الحنون، ولا أجد عطف الأب الشفيق .
أنا يتيم أحس بالأم اليتامي، وأشعر أنني — ولم أكن عالة على عمي الذي عهد إليه أمر تربيته — كنت في شقاء دائم: إن مرضت لا من يواسيني، وإن جعت لا أجد من أتجاسر عليه وأطلب منه طعامي، وإن كانت لي حاجة إلى أى شيء لا أجد من أفاتحه فيه ليسعفني به... كنت انظر حسرة إلى ما أحتاج إليه، ويرتد بصرى وهو حسيب بألم لوعة الحرمان من الأُم والأب، إذ هما حقاً قبلة آمال الولد وكعبة رجائه .

عهد إلى عمي بإدارة شئوني فنقلني وأخى الأُمير قليلاً منى إلى نازره، وكان مقبلاً بمدينة طنطا، وقد صاهر أحد أهلها، وإن كان موسراً إلا أنه كان قروى الحياة صميمها، يسره أن يجد مواشيه في صحن داره، لا يعبأ بما يتصاعد من روائح، ولا يهتم بغير وفرة ألبانها وكثرة زبدها وسمنها، ومن الأسف أن عمي كان راضياً بهذه الحياة، سعيداً بالتمتع بزوجه التي هي غاية قصده ومناه، فعهد إليها أمرنا والعناية بنا، وعلمت هي وأهل الدار أننا ولدا أخيه اليتيم قد فقدنا الأب والأُم، وأنا تحت رحمتهم وفي كنفهم .

بدأت حياتنا الجديدة بالاندماج في هذه العائلة، وكانت فوارق كبيرة بين المعيشتين: الحالية والسابقة، ولكن هكذا أراد الله، وكان ولي أمرنا لا يهتم إلا أن يسمع عنا أننا أكلنا وشربنا، إلا أنه من الجحود أن أنسى ما كان له من حسنات في هذا السبيل، فأسأل الله له الرحمة كما أنى أذكر ضدها وأغفرها له .